النظام الحزبي

في بريطانيا

نظرة تاريخية تحليلية

﴿ موالون ومعارضون ﴾ تنقسم البلاد عادةً إلى أحزاب إذا فرّقت الخلافات السياسية بين أبنائها ، والوطنية دائماً هي المصدر الأول للحزبية ، أما في انجلترا فقد نشأت الحزبية من الخلافات الدينية ففي سنة ١٥٣٣ قامت الكنيسة الانجليكانية القومية الرسمية بعد أن تحررت من سلطة البابوية وأصبحت خاضعة خضوعاً مباشراً للملك ، تستمد منه سلطانها ويعين هو رجالها ، وكانت تقوم الى جانب كنيسة الملك كنائس أخرى لا تخضع للبابا أو للملك ، إنما تتبع نظام الاصلاح الذي نادى به لوثر وكالفن ، وقد عرف أتباع تلك الكنائس بالمعارضين ، بالنسبة لغيرهم من الموالين للعرش وكنيسة العرش ، وكان النزاع بين الفريقين شديداً ، وقد أصدر البرلمان — وأغلبيته من الموالين — في النصف الثاني من القرن السابع عشر عدة قوانين تعسفية ضد المعارضين ، منها ما يحرمهم من حرية العبادة ، أو يحول بينهم وبين شغل أية وظيفة في الدولة ، أو يحرّم عليهم إنشاء المدارس ، فكان من شأن ذلك أن زاد حقد المعارضين على الملك وكنيسته .

﴿ « ويج » و « توري » ﴾ وحوالي سنة ١٦٧٥ تكوّنت جماعة سياسية أطلقت على نفسها اسم « جماعة الشريط الأخضر » جعلت هدفها مقاومة حزب الملك ، لما بدا من اعوجاج في سياسة الملك نحو فرنسا ونحو الكاثوليك ، فبادر أتباع الكنائس المعارضة بالانضمام الى هذه الجماعة . فنشأ عن الفريقين حزب جديد قوي منظم يعمل على اضعاف نفوذ الملكيين الذين من ناحيتهم كان يجمعهم حزب لا يقل قوة وتنظيماً ، وقد أطلق الملكيون على المعارضين تهكماً بهم لفظة (ويج Whigs) كما أطلق المعارضون على الملكيين تهكماً بهم كذلك لفظة (توري Tories) وكلا اللفظين من ألفاظ السباب ، ويتضمنان معنى الخروج عن مبادىء الشرف واللفظ الأول من أصل اسكتلندي ، أما الثاني فمن أصل ارلندي . وهكذا وضعت أصول الحزبية في انجلترا

﴿ محافظون وأحرار ﴾ وعقب ثورة ١٦٨٩ أعلنت الحريات العامة في المملكة فتقرّب ذلك بين الحزبين من حيث ولائهما للعرش والدستور ، ولم تبق بينهما إلاّ خلافات مبدئية

بسيطة ، وكان كل من الحزبين يتكون من طبقة النبلاء ملاك الأرض أو كبار التجار . غير أن الثورة الصناعية التي تمت اوربا خلقت طبقة جديدة ، البورجوازية الصناعية التي أخذ نفوذها يقوى وبدأت تطالب بتعديل القوانين البرلمانية فيما يتعلق بحقوق الانتخاب والتمثيل النيابي وقد قوي ساعد حزب « Whig » بهذا العنصر الجديد ، فاخذ نحو سياسة من الحرية أوسع ، تشمل الحرية السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ، وما كان طابع الحرية هو أهم ما يميز خطة الحزب فقد أطلق على نفسه اسم حزب الأحرار وذلك منذ سنة ١٨٣٢ .

أما حزب « Tory » فبعد أن قاوم مطالب الرأسمالية الصناعية . وقد فشل في مقاومته اضطر أن يسلم للامر الواقع ، وكان على رأسه السير (روبرت بل) ، وهو من اصحاب المصانع ، الذي استطاع ان يستميل الى نظرياته المعتدلة عدداً كبيراً من أفراد الحزب ، وكانت لفظة « Tory » قد أصبحت مكروهة لماضيها غير الحميد ، فرأى أعضاء الحزب أن يستبدلوا بها لفظة أخرى ، ألطف وأخف وقعاً في نفوس الشعب وأقرب معنى إلى روح الحزب ، فاختاروا لأنفسهم اسم المحافظين ، وكان ذلك في سنة ١٨٣٤ .

(المحافظون) والواقع ان معنى المحافظة لا يتفق كل الاتفاق مع روح تعاليم سنة ١٨٣٤ ، فقد أخذ الحزب يتجه نحو سياسة جديدة ترمي الى مراجعة الانظمة العتيقة لتبين أخطاء الماضي وإدخال ما يلزم من تعديل واصلاح بغير تقيد بالتقاليد وبغير تطرف وتسرع ، فهي سياسة اصلاحية تدرجية حذرة .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر ظهر على الحزب طابع جديد هو التمسك بالوحدة والاخاء ، ففي سنة ١٩٢٣ عند ما قامت حركة ارلندا الحرة ، تشبث المحافظون بفكرة وحدة (المملكة المتحدة) ، وفي أيام دزرائيلي وجوزيف تشمبرلن تعلق المحافظون بفكرة وحدة الامبراطورية البريطانية وتقوية هذه الوحدة بالعلائق الاقتصادية ، وفي أيامنا هذه يدعو المحافظون الى التجانس بين طبقات الأمة وعناصرها ، وهم يعتمدون الملكية الفردية والمنشآت الخاصة ، ولما كان معظمهم ملاكاً زراعيين فهم يولون الأرض والزراعة كل اهتمامهم ، هذا على الرغم من أن كثيراً منهم أصبحوا من الرأسماليين الصناعيين ، وليس حزب المحافظين مقصوراً على طبقات أو فئات خاصة ، فباب الانضمام اليه مفتوح لأي نوع من الاعضاء من أي الطبقات كانوا ، فهو حزب التآلف والتوافق يريد أن يجمع عناصر الأمة في وحدة أساسها الاخاء — لا المساواة — وأن يسير بالأمة في طريق الاصلاح بالتدرج والاعتدال لا عن طريق الثورة والتطرف ، هذا مع الاحتفاظ بالاطار — أو الشكل — التاريخي الذي نشأت الأمة البريطانية في داخله .

﴿ الاحرار ﴾ أما حزب الاحرار فجوهر فكرته الدفاع عن الحرية ، فقد دافع عن الحرية الدينية وعن حق المعارضين للكنيسة القومية في العبادة ، والتمتع بحقوقهم المدنية كاملة ، ثم دافع عن الحرية السياسية وعن حق كل فرد في اعطاء صوته ، وعن حق مجلس العموم في أن تكون له الكلمة الأخيرة الفاصلة في شؤون الأمة ، ثم دافع عن الحرية الفردية حرية الفكر وحرية العمل في حدود الدستور والقانون ، وقد دعا الاحرار في بادىء الأمر الى الحرية الاقتصادية ، إلاّ أنهم بعد أن انسعت الحركة العمالية ، رأوا أن للعمال حرية يجب أن تصان ، وأن هذه الحرية لا تصان إلاّ اذا تغير النظام الاقتصادي ، ففكروا في برنامج اقتصادي ديمقراطي يوفقون فيه بين حرية المنشآت الفردية وبين مصلحة العمال ، وطالب الحزب بأن يكون للعامل نصيب من أرباح المنشأة يمكنه مع الزمن اقتناء ملك خاص ، ويتضح وجه التقارب بين الاحرار والاشتراكيين في أمرين ، في تعضيدهم وتحبيذهم لاشتراكية جميع المنشآت التي تستطيع الدولة ادارتها خيراً من الأفراد . ثم في محاولة ادخال مبدأ التعاون الاجتماعي ، إلاّ أن هناك عوامل كثيرة جدت كان من شأنها إضعاف مركز هذا الحزب ، فقد تكوّن الحزب أصلاً لتحقيق الحرية الدينية والسياسية والاجتماعية ، وقد تمّ له ما أراد ، أما الحرية الاقتصادية فبعد أن دعا اليها انتهى الى تقييدها ، فكأنما هو يلغي نفسه بنفسه ، خصوصاً وان حزباً جديداً فتيّاً اقتحم ميدان السياسة البريطانية داعياً إلى تقييد الملكية الصناعية ، مثله مثل حزب الاحرار ولكن بصورة أوضح وعزم أشد ونشاط أقوى ، ذلك هو حزب العمال .

﴿ حزب جديد ﴾ كانت الامة تنوق الى سن قوانين اجتماعية ديمقراطية تحد من امتيازات الملاك الزراعيين ، وتحد من غلواء الكنيسة الرسمية ، وتعمل على تحسين حالة العمال ، وتنظم توزيع الثروة الاقتصادية ، وتساعد على إظهار إرادة الشعب ، وكانت الامة ترتقب تحقيق تلك الآمال على يد حزب الاحرار . والواقع أن عدداً غير قليل من الاحرار أخذوا يسيرون في طريق الاشتراكية المعتدلة ، كما دعا بعض مفكريهم الى تغيير نظرية الحرية الاقتصادية والمنافسة الفردية ، كما دافع بعضهم عن الناحية الانسانية في الانتاج الصناعي وكان للأدباء الانجليز أمثال (شو) و (ولز) نصيب كبير في هذه الدعوة .

ثم قامت حركة كبيرة تنتقد احتكار بعض النبلاء للأرض والزراعة وانحصار الملكية العقارية في المدن في أيدي عدد محدود من الارستقراطيين الأثرياء ، كما زاد نشاط اتحادات العمال ، وكانت الحركة العمالية تمتاز بالخصومة المستمرة بين العمال وأصحاب العمل أكثر منها بين العمال وبين الدولة ، إلاّ أن العمال بدأوا في ١٨٩٠ يشعرون بأن الحكومة لا توازرهم ،

ونشأ التنافر بينهم وبينها ، وفي نفس الوقت كانت الماركسية قد اتسع مداها في بريطانيا .

في ١٨٨١ تكوّن (الاتحاد الاجتماعي الديمقراطي) يضم العناصر المثقفة ويرمي الى نشر الشيوعية بين الشعب ، وفي ١٨٨٣ تأسست (الجمعية الفابية) تدعو الى اشتراكية الصناعة والارض والحكومة ، وفي ١٨٩٣ تكوّن (حزب العمال المستقلين) وقد بنى سياسته على الشيوعية المنقحة ، وفي ١٩٠١ اتحدت كل تلك الهيئات وانضم اليها جميع اتحادات العمال ، فنشأ حزب جديد قوي هو المعروف اليوم بحزب العمال .

و العمال » تلك هي الظروف التي نشأ فيها (حزب العمال) البريطاني الذي أخذ نفوذه يطغى على حزب الاحرار وصار المحافظون يحسبون له كل حساب . وكلة العمال هنا لا تعني عمال المصانع فحسب ، بل تشمل كذلك أصحاب المهن الحرة كأمثال الاطباء والمدرسين والمحامين والصحفيين .

ونحن اذا درسنا سياسة حزب العمال على ضوء التصريحات التي أدلى بها زعماؤه ، استطعنا أن نقول انه حزب اشتراكي يرمي الى جعل وسائل الانتاج من الملكية العامة ، والى البحث عن خير النظم التي تستطيع الامة بها أن تدير وتراقب الصناعات والمشاريع ، إلاّ أن هذه المراقبة وتلك الادارة من جانب الامة ، ليس الغرض منهما مجرد تطبيق النظرية الاشتراكية من حيث هي نظرية ، إنما الغرض منهما الوصول الى حل عملي لرفع الضيق ومنع أسباب الشكوى ، وتحقيق المساواة الاجتماعية ، فرغبة الحزب إذن هي تحرير الشعب من القيود السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كان يرزح تحتها ، وهو يهتم بتلك الفئة من الشعب التي يرتبط مصيرها ارتباطاً مباشراً بالقدر الذي تؤديه من العمل للحصول على ضروريات الحياة .

يسعى حزب العمال الى ازالة الفوارق بين أفراد الامة ، وهو في ذلك انما يتبع سياسة الحزبين الآخرين ولكن بنشاط أوفر وحماس أشد ، نظراً لحداثته ، وهو يكاد يكون اليوم أقوى الاحزاب البريطانية ، ومما زاد نفوذه انتصار روسيا العظيم في الحرب الاخيرة وظهورها بمظهر أقوى الدول الاوربية قاطبة ، وروسيا كما نعرف هي حاملة لواء الاشتراكية وحزب العمال كما رأينا آخذ بهذه النظرية ، وهو يعتبر نفسه اليوم الحزب الوحيد الذي يمكنه أن يتفاهم مع روسيا ، كما صرّح بذلك زعماؤه .

هذه نظرة عاجلة لتاريخ نشأة الاحزاب في بريطانيا وتطورها وسياستها ، وقد رأينا أن وجه التقارب كبير بين حزبي الاحرار والعمال ، لذلك يرى كثير من الكتّاب السياسيين أن بريطانيا لا تعرف اليوم في الواقع الاّ حزبين رئيسيين هما حزب العمال وحزب المحافظين .

يليا نصار حكيم